اللغة واللغويون

وقد يعدُّ لغويو هذا العصر أيضًا من النحاة أو الأدباء، لكننا أفردناهم لاشتغالهم على الأكثر في اللغة. نعني الألفاظ من قبيل المعاجم أو ما هو في سبيلها، ويقال بالإجمال: إن المعاجم اللغوية لم تنضج إلا في العصر الآتي، على أن علماء هذا العصر مهدوا السبيل لذلك أكثر ممن تقدمهم من أهل العصور السابقة، فألَّف بعضهم كتبًا تشبه المعاجم كما سترى في تراجمهم وآثارهم، وهم:

(١) أبو عمر الهروي (توفي سنة ٢٥٥هـ)

هو أبو عمرو شمر بن حمدويه الهروي، كان ثقةً عالمًا، حافظًا للغريب، راوية للأشعار والأخبار، ولم يصلنا من كتبه شيء، وإنما ذكرناه لأنه ألَّف معجمًا في اللغة بدأ فيه بحرف الجيم على ترتيب الخليل لم يسبقه أحد إلى مثله، ولكنه ضاع ولم يبق إلا خبره، وقد ذكره صاحب طبقات الأدباء (صفحة ٢٦٠) في ترجمة المؤلف.

(٢) أبو حاتم السجستاني (توفي سنة ٢٥٥هـ)

هو أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني. كان عالمًا باللغة والشعر، أخذ عن أبي زيد وأبي عبيدة والأصمعي، ولم يكن حاذقًا في النحو لكنه كثير التأليف للكتب. ذكر له صاحب الفهرست ٣٢ مؤلفًا أكثرها في اللغة من باب المعاني المجتمعة في أصل مشترك تدخل في باب واحد، ككتاب الحشرات، وكتاب خلق الإنسان، وكتب الوحوش والسيوف والإبل والجراد والكرم ونحوها، وليست هي من قبيل وصف هذه الموجودات الطبيعي أو

الطبي أو الزراعي، وإنما يراد بها الوجهة اللغوية لتمييز المسميات بأسمائها — وإليك ما وصل إلينا من كتبه:

(١) كتاب المعمرين: هو من كتب التاريخ، فيه تراجم الذين عمروا من الرجال في الجاهلية مع طرف مما قالوه في منتهى أعمارهم، وبلغ عددهم مائة وعشرة رجال في جملتهم طائفة من الشعراء كعبيد بن الأبرص ولبيد وعمرو بن قميئة وجماعة من السادة والفرسان، كأكثم بن صيفي وعامر بن الظرب ودريد بن الصمة وزهير بن جناب وغيرهم، والكتاب رواية أبي روق الهمداني. لم يذكره صاحب الفهرست بين مؤلفات السجستاني، طبع ليدن سنة ١٨٩٩ بعناية المستشرق غولتزير في ٢٨١ صفحة منها ١٠٣ صفحات للأصل والباقي للمقدمة والتعاليق. وطبع أيضًا بمصر سنة ١٩٠٥.

(٢) كتاب النخلة: طبع في بالرمو بإيطاليا سنة ١٨٣٧، وفي رومية سنة ١٨٩١، ومنه نسخة خطية في المكتبة الخديوية.

وتجد ترجمة أبي حاتم السجستاني في طبقات الأدباء ٢٥١، والفهرست ٥٨، وابن خلكان ٢١٨ ج١.

(٣) أبو العباس المبرد (توفي سنة ٢٨٥هـ)

هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي نسبة إلى ثمالة قبيلة من الأزد، ويعرف بالمبرد. ولد سنة ٢١٠هـ في البصرة، وانتقل إلى بغداد، وكان شيخ أهل النحو والعربية، وإليه انتهى علمهما بعد طبقة عمر الجرمي وأبي عثمان المازني، وأخذ النحو عنهما وعن غيرهما.

وكان قوي الذاكرة كثير الحفظ معاصرًا لثعلب المتقدم ذكره، وجرت بينهما منازعات ومعارضات، وبهما ختم تاريخ الأدباء،[١] وكان المبرد يحب الاجتماع بثعلب وهذا يكره ذلك؛ لأن المبرد كان حسن العبارة فصيح اللسان وثعلب مذهبه مذهب المعلمين، فإذا اجتمعا في محفل حكم للمبرَّد. وكان المبرد كثير الأمالي يملي علمه على الطلبة أو على من يدوِّنه — ومنها سميت الأمالي، وقد ذكر له صاحب الفهرست ٤٤ مؤلفًا في الأدب واللغة والنحو والعروض والبلاغة والقرآن وغير ذلك، وهاك ما وصلنا منها:

(١) الكامل: هو كتاب في الأدب وصفه المبرد بقوله: «هذا كتاب ألَّفناه، يجمع ضروبًا من الآداب بين منثور ومنظوم، وشعر ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار خطبة شريفة

ورسالة بليغة، والنية أن يفسر كل ما يقع فيه من كلام غريب أو معنى مغلق.» فهو يعدُّ من كتب اللغة الممهدة للمعاجم، وفيه كثير من الفوائد التاريخية، أهمها فصل في الخوارج يحوي حقائق هامة من تاريخ بني أمية، وقد طبع الكامل في ليبسك سنة ١٨٦٤، وفي الآستانة سنة ١٢٨٦هـ، وفي مصر سنة ١٣٠٨.

(٢) كتاب المقتضب: عليه شرح لسعد الله الفارقي المتوفى سنة ٣٩١هـ، منه نسخة خطية في مكتبة الإسكوريال.

(٣) كتاب التعازي والمراثي: منه نسخة خطية في الإسكوريال.

(٤) رسالة في الجواب على سؤال وجهه إليه الواثق بشأن الشعر والنثر، منه نسخة خطية في مكتبة مونيخ وأخرى في برلين.

وترجمته في ابن خلكان ٤٩٥ ج١، وطبقات الأدباء ٢٧٩، الفهرست ٥٩.

(٤) المفضل بن سلمة (في أواخر القرن الثالث)

هو أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم اللغوي، وكثيرًا ما يقع الالتباس بينه وبين المفضل بن محمد الضبي الأديب المتقدم ذكره، ولعل السبب في ذلك ما يجدونه في ترجمة ابنه محمد في ابن خلكان؛ إذ زاد في نسبه هناك لفظ «الضبي»، ونظن ذلك سهوًا من ابن خلكان أو من النساخ؛ لأن نسبه في الفهرست، وفي طبقات الأدباء ليس فيه لفظ «الضبي»، ويؤيد ذلك أن ابن خلكان لم يترجم المفضل الضبي الأديب، ووقع في ما نقله ابن خلكان من ترجمة المفضل بن سلمة تشويش في أسماء مؤلفاته، فجاء اسم كتاب الفاخر «المفاخر» وكتاب البارع «التاريخ»، وهو خطأ في النسخ أو الطبع، والمفضل بن سلمة من لغويي العصر العباسي الثاني على مذهب أهل الكوفة، وقد استدرك على الخليل وخطَّأه في كتابه، وذكر له صاحب الفهرست نحو عشرين مؤلفًا لم يصلنا منها إلا:

(١) كتاب الفاخر: في اللغة، وموضوعه معاني ما يجري على ألسنة العامة في أمثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب وهم لا يدرون معناه، فيأتي بالمثل ويشرحه نحو ما في كتاب مجمع الأمثال للميداني، منه نسخة في كتب الشنقيطي بالمكتبة الخديوية في ١٤٦ صفحة كبيرة، نسخة أخرى من جملة كتب زكي باشا في ١٣٥ ورقة.

(٢) كتاب العود والملاهي: في آلات الطرب، وهل تعاطيها يخالف التقوى، وهو يرى أنه جائز، وأتى بالأدلة على ذلك، منها نسخة في جملة كتب زكي باشا.

وترجمة المفضل في الفهرست ٧٣، وطبقات الأدباء ٢٦٥، وابن خلكان ٤٦٠ ج١.

(٥) ابن دريد (توفي سنة ٣٢١هـ)

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي. ولد في البصرة سنة ٢٢٣، ونشأ وتعلَّم فيها، وأخذ النحو عن السجستاني والرياشي وابن أخي الأصمعي، وانتقل عند ظهور الزنج إلى عمان أقام فيها ١٢ سنة وعاد إلى البصرة، ثم رحل إلى نواحي فارس، وصحب ابني ميكال وهما يومئذ على عمالة فارس، وألف لهما كتاب الجمهرة الآتي ذكره، فقلداه الديوان، وكانت تصدر كتب فارس عن رأيه، ولا يُنَفَّذُ أمر إلا بعد توقيعه، ثم انتقل إلى بغداد سنة ٣٠٨هـ بعد عزل ابني ميكال عن فارس، فأجرى عليه الخليفة المقتدر خمسين دينارًا في الشهر إلى وفاته سنة ٣٢١.

وقد نبغ ابن دريد في اللغة، وكان من أكابرها مقدمًا بها وبالأنساب والأشعار، وكان شاعرًا كثير الشعر، وله المقصورة المشهورة التي مدح بها الشاه ابن ميكال وولديه، مطلعها:

أما ترى رأسي حاكى لونه ... طرة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيضُّ في مسوده ... مثل اشتعال النار في جزل الغضى

عدد أبياتها ٢٢٩ بيتًا، وفيها كثير من آداب العرب وأخبارهم وحكمهم وأمثالهم.

وعارضه بها جماعة من الشعراء وشرحها كثيرون، وله قصائد أخرى، وإنما اخترنا وضعه بين علماء اللغة؛ لأن أكثر كتبه فيها حتى قالوا: إنه قام مقام الخليل بن أحمد فيها، وأورد أشياء منها لم توجد في كتب المتقدِّمين، وقد ذكر له صاحب الفهرست ١٩ مؤلفًا هاك ما بلغنا خبره منها:

(١) المقصورة: أو كتاب المقصور والممدود قد تقدم ذكرها. طبعت مع ترجمة وشرح باللاتينية في فرانكيري سنة ١٧٧٣، وفي هردوفيكي سنة ١٧٨٦، وفي غيرهما. ومنها نسخ خطية وشروح في معظم مكاتب أوروبا أهمها شرح ابن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠هـ، وابن هشام اللخمي السبتي، وفي المكتبة الخديوية شرح المقصورة خطأ للسيد عبد القادر بن مكرم المتوفى سنة ١٠٣٣هـ، واسمها الآيات المقصورات، وفي مكاتب أوروبا وغيرها نسخ خطية من أشعاره الأخرى.

(٢) الجمهرة في اللغة: وهي أهم مؤلفاته بالنظر إلى اللغة؛ لأنها معجم مرتب على أحرف الهجاء اتبع في ترتيبه ترتيب كتاب العين للخليل، فبدأ بالثنائي ثم الثلاثي فالرباعي فملحق الرباعي فالخماسي والسداسي وملحقاتهما، وجمع الألفاظ النادرة في باب مفرد، ورتب كل طائفة من تلك الألفاظ على أبجدية الخليل، وطريقة التفتيش فيه غير مألوفة عندنا، فإنه يأتي في باب الثلاثي مثلًا في فصل العين بالأحرف الثلاثة التي أولها عين مثل «ع ل ن»، ويأتي بمعانيها على اختلاف وضع أحرفها، فيقول: «علن الأمر يعلنه علنًا ... واللعن أصله الإبعاد ... والنعل معروف ... ونعل الفرس ما أصاب الأرض من حافره إلخ.» وقد سماه الجمهرة؛ لأنه اختار فيه الجمهور من كلام العرب، ومنها نسخ خطية في مكاتب لندن، وباريس، وكوبرلي، ويني جامع، ونور عثمانية، وأيا صوفيا بالآستانة، ونسخة ناقصة في المكتبة الخديوية.

(٣) كتاب الاشتقاق: في أسماء القبائل والعمائر وأفخاذها وبطونها وساداتها وشعرائها وفرسانها على شكل المعاجم، وفيه فوائد لغوية، طبع في غوتنجن سنة ١٨٥٤.

(٤) كتاب صفة السرج واللجام: طبع في ليدن سنة ١٨٥٩.

(٥) كتاب الملاحن: طبع في هيدلبرج سنة ١٨٨٢، وفي مصر قريبًا.

(٦) كتاب المجتبى: فيه أقوال النبي. موجود في المتحف البريطاني وأكسفورد.

(٧) كتاب السحاب والغيث وأخبار الرواد: طبع في ليدن مع كتاب السرج واللجام.

وأخباره في ابن خلكان ٤٩٧ ج١، وطبقات الأدباء ٣٢٢، والفهرست ٦١.

(٦) عبد الرحمن الهمذاني (توفي سنة ٣٢٧هـ)

هو عبد الرحمن بن عيسى بن حماد الهمذاني. كان إمامًا في اللغة والنحو، وكاتبًا لبكر بن عبد العزيز بن أبي دلف العجلي، له مؤلفات جزيلة الفائدة لم يصلنا منها إلا:

كتاب الألفاظ الكتابية: وهو مما يستعان به في تنميق العبارة وضبط معناها؛ لاحتوائه على مترادفات من الجمل الفصيحة كل منها مجموع في باب خاص من قبيل فقه اللغة، ولكنه سابق له. وقد طبع الكتاب في بيروت سنة ١٨٨٥ وفي غيرها.

ومن كتب اللغة في هذا العصر كتاب المنجد لأبي الحسن الهنائي المعروف بكراع في أوائل القرن الرابع للهجرة، رتَّبه على ستة أبواب في أعضاء البدن وأصناف الحيوان

والطيور والسلاح والأرض، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية، وكتاب المنضد له أيضًا مرتب على الهجاء في المتحف البريطاني.

هوامش

(١) ابن خلكان ٥٩٥ ج١.